

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السيرة المحمدية

تحت ضوء العلم والفلسفة

مقدمة

في هذا اليوم (*) فاتحة العام الهجري الحافل بالذكريات الخالدة عن الدعوة الإسلامية في دورها الخامس ؛ نبدأ في نشر دراسات متتابعة في حياة خاتم المرسلين محمد ﷺ على أسلوب جديد تحت ضوء العلم والفلسفة .

كانت هذه أمنيّتي منذ سنين ، ولكنني كنت أرجئ تحقيقها ، لا إشاراً لغيرها عليها ، ولكن لما كنت أشعر به من المشقة العظيمة في توفيتها حقها من الناحيتين العلمية والفلسفية على ما ينبغي أن تكون عليه في بيئة أصبحت مطامعها العلمية لا تقف عند حدّ . فالناس اليوم - وخاصة متعلمهم - لا يقنعهم سرد الحوادث التاريخية دون معرفة عللها الأولية ، سواء أكانت من طبيعة البيئة ، أم من مقتضيات الاجتماع ، أم من مستلزمات العاطفة الدينية التي جُبلت عليها النفوس البشرية . ولا يكفهم سرد أطوار النبوة وحالاتها دون معرفة ماهية النبوة في ذاتها ، وهل هي حاجة من حاجات الروح الإنسانية كما يقول الدينون ، أم هي مجرد ظواهر اجتماعية ، تولدها ضرورات الاجتماع ، وتستدعيها أمانى النفوس ، مثلها كمثل جميع الظواهر التي تتولد في أدوار التطورات الأدبية للأمم ثم تزول وتحل محلها ظواهر أخرى أكثر مناسبة ، وأوثق صلة بضروب الثقافات التي تعاقب على الجماعات في مراحل حياتها العقلية ؟

والمثل إلى تأييد أحد هذين التيارين الفكرين يستدعي إقامة الأدلة القاطعة

(*) أول المحرم سنة ١٣٥٨ هـ .

عليه ، ولا يمكن أن يؤخذ كقضية مسلّمة ، وخاصة في هذا الدور من تنازع المذاهب الفلسفية .

ثم إن الكلام عن الوحي وأسابيه ، والاتصالات الروحانية بالملا الأعلى ، وإمكان استمداد العلم عن العالم العلويّ مباشرة بواسطة الملك ، خلافاً للسنة المعروفة بين البشر ، كل هذا لا يتأتى للعقل الراهن أن يُسلّمه بغير أدلة تناسب خطورته الاعتقادية ، فالترام كتابة السيرة النبوية تحت ضوء العلم والفلسفة يوجب إيراد هذه الأدلة ، ويوجب أن تكون من القوة ، وصحة الدلالة ، بحيث تصلح أن تثلج عليها الصدور ، وتطمئن إليها العقول ، لا أن تكون مسلّمات تحكّمية في صورة أدلة علمية .

لا أنكر أن هذا كله من أشق الأعمال الكتابية ، وأن التشكّل له بسبيل فتح طرائق جديدة للتدليل على أمور روحية يعتبرها أكثر الناس أجنبية عن المحاولات العلمية .

وليست تنحصر صعوبة هذا البحث في هذه الناحية الروحية ، ولكنها تمتد إلى نواح أخرى علمية باحتة يصعب تعليلها بالأسباب المادية على مقتضى الدستور العلمي ، وسنضطر إلى تلصّس علل لها من عالم ما فوق الطبيعة ، وهذا موضوع نزاع سيكون بيننا وبين العلم الاجتماعي نفسه ، لأنه لا يعترف بذلك العالم العلوي ، ويهون عليه أن يتلمس للحوادث عللاً واهية أو يتركها بدون تعليل تحاشيا من نسبتها إلى علل غير طبيعية . مثال ذلك قيام محمد ﷺ وحده بدعوة أمة برُمّتْها إلى ترك دين توارثته عن أسلافها أجيالاً كثيرة ، والأخذ بدين مناقض له في جملته وتفصيله ، ونجاحه فيما تصدى له نجاحاً محمّراً للعقل لم يسبق له شبيه في تاريخ النفس الإنسانية . فالباحث العلمي يجد نفسه إزاء هذا الحادث الجلل مضطراً لأن يتلمس له العلل الطبيعية ، فيدعى أن الأمة العربية قبيل البعثة المحمدية كانت تتطلب ديناً جديداً ، وتتطلع إلى تأليف كتلة اجتماعية تجتمع فيها كلمتها ، وتتوحد وجهتها ، وتتعين بها غايتها ، فلما ظهر محمد ودعا إلى الدين الجديد والاجتماع عليه ، تسارع العرب إلى تلبية نداءه ، فقام الإسلام وقامت جماعته ، وتمّ لها ما تمّ من الفتوحات الضخمة ، والمدنية الفخمة ، ثم اعترى هذه الوحدة التراخي ، وانتهى حال المسلمين إلى ما انتهى إليه اليوم !

يَدَّعِي الباحثُ العلميّ هذه الدعوى تخلصاً من ورطات الحيرة ، متعمداً في هذه السبيل الاستناد إلى علل باطلة ، يعلم هو قبل غيره عراقتها في البطلان . فإن الأمة العربية لم تكن قبيل البعثة المحمدية تتطلب ديناً جديداً ، وكيف يعقل ذلك وقد رفضت دعوة النبي رفضاً باتاً وعدته كاذبا ، وعجبت من جرّأته على الزرابة بآلهتها ، واعتبرت التوحيد فرية لم يقل بها أحد غيره ، فقالوا كما ذكره الله عنهم : ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ . وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ . مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْعِلْمِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ (١) . فائمة تقول مثل هذا القول ، وتنايد الداعى إلى الدين الحق ، وتتقصده بالقتل حتى يخفى ويخرج من بلده في جنح الظلام ، ويعتصم إلى غار تفاديا من الطلب الذى أرسل وراءه ، كل هذا منها لا يدل على أنها كانت تلمس ديناً جديداً أصلح من دينها الأول . وإنى أسأل القائلين بهذا القول : أى أمة في الأرض من أهل القرون الماضية طلبت أن تبدل ديناً جديداً بدينها الذى ورثته عن آبائها ، وسعت إلى ذلك سعيه ، فتم لها ما أرادت أو كادت ؟ ليس في تاريخ البشر كله ما يدل على هذا . وفي الأرض اليوم أم لو انتقد الباحث أديانها لعجب كيف يُسبغ قوم لهم عقول أن يدينوا بها في عصر بلغ فيه العلم إلى حد التحدث في الصعود إلى القمر ، ولم يكفهم المنظار الفلكى ولا آلة تحليل الأشعة المنعكسة منه لمعرفة تركيبه المادى ؟

أما دعواهم بأن القبائل العربية كانت تنهياً لجمع شتيتها ، والقيام على هيئة أمة قبل بعثة النبي ﷺ ، فهي دعوى لا دليل لهم عليها ، بل لا أثر يؤثر عنها ، وإن أمة تدبّ فيها هذه الروح ولا تؤثر عنها كلمة فيها أو بيت من الشعر أو أية حركة تنمّ عليها ، لأمر يوجب الدهش ، لا سيما وقد نقل الرواة من أخبارها كل صغيرة وكبيرة ، بل اختلقوا عليها ما شاؤوا أن يخلقوه ، فلو كان لديها ميل للاجتماع لما خفى أمره ، ولكانت له شواهد كثيرة تشير إليه . وما حفز أصحاب التعليل إلى

هذه الاختلافات إلا حيرتهم في تعليل حدوث انقلاب خطير كالذى حدث على يدى النبي ﷺ طفرة ، بدون أسباب مادية مهدت له آماداً طويلة .

ومما نسوقه من قبيل الإطراف فى هذا الباب أن الأستاذ مونتيه ، المدرس بجامعة جنيف ومترجم القرآن الكريم ، قدم لترجمته بمقدمة قال فيها : إن هذا الكتاب يحوى كثيراً من الأصول القيمة ، والتعاليم الصالحة ، وعبارته فى أعلى درجات البلاغة ، فلا يعقل أن يكون محمد والحالة هذه أمياً ، لأن الأمى لا يستطيع بحال من الأحوال أن يأتى بمثل هذا العمل الأدبى الضخم !

فانظر كيف يتعسف الأستاذ مونتيه فى حكمه ، وينسب الكذب لأعظم رجل أنجبته الأسرة الآدمية ، ويعزو الغفلة لأمة يرمتها ، لجحد أن الكتاب الذى هو بسبيل الكلام عليه لا يمكن صلوره من أمى ! ذلك لرسوخه فى عقيدته من أن العلم والحكمة لا مصدر لهما إلا العقل البشرى ، وأنهما لا يمكن أن يأتيا من طريق الروح ، لأن الروح عنده لا وجود لها ، والعالم الروحانى خيال بحت . ثم هو لا يريد أن يدع أمر صدور هذا الكتاب من رجل أمى أعجوبة خارقة للعادة ، يجب أن نتلمس أسبابها الحقيقية ، فرمى القول على عواهنه وغلله على النحو الذى رأيت !

وأراى من ناحية مضطراً لأن أقول : إن الكثيرين ممن تناولوا منا السيرة المحمدية بالكتابة جعلوا معتمدهم الأساليب الخطابية ، والأفانين البيانية ، ولم يعنوا أقل عناية بحاجة العقول المجهولة على التشكك والتثبت ، فأسرفوا فى إهمال الناحية الإقناعية ، وتمادوا على الناحية التسليمية ، فجرهم هذا الموقف إلى قبول كل ما وضعه الخراصون من المبالغات التى ضافوا بها ما ورد من أمثالها عن الأمم المختلفة ، مُعاصرين بذلك كل ما ورد فى الكتاب من وجوب مجانية الغلو فى القول ، وضرورة التثبت فى النقل ، والتححيص فى الرواية ، فجاءت السيرة المحمدية زاخرة بالأقاصيص الخرافية ، والروايات الموضوعة ، والأشعار المصنوعة . فإن تكن هذه الكتب المؤلفة فى السيرة المحمدية قد راجت لدى العامة ومن يجرى مجراهم ، فقد أهملها الخاصة ، وكان يجب أن تكون أول ما تتجه إليه عقولهم ، وتهوى إليه أفئدتهم . وقد تناول التأليف فى السيرة فى العهد الأخير رجال من أهل الثقافة الحديثة ، فوفوا بحاجات

في نفوس الناس ، وبقيت حاجات أخرى لا تزال غير مُوفاة ، بل بقيت نواح لفتت العلوم الراحنة الأنظار إليها ، ولم يطررها قلم كاتب إلى اليوم ، ولا يجوز أن تكون سيرة النبي ﷺ على هذا النحو من النقص ، وخاصة في هذا العهد الذي بلغت الشكوك فيه أبعد مدى يمكن أن تصل إليه ، ووصل الاستخفاف فيه بأمر النبوات إلى حدٍّ لم يبلغه حتى في أضلّم عهود الجاهلية .

لقد أصبح القول الفصل اليوم للعلم ، العلم الذي اتفق قادة الفكر الإنساني على تسميته بهذا الاسم ، وهو جملة المقررات اليقينية على الوجود وكائياته مما سرّيت عليه أصول الدستور العلمي ، فكل قول لا يحصل على تأييد هذا العلم أو على القليل لا يماشى أسلوبه ، ويترسم حدوده ، لا ينال من العقلية العصرية المكانة التي يراد أن تكون له . وقد رفض هذا العلم كل ما عرض عليه من أساطير الأولين حتى العقائد التي بادت في سبيل الدفاع عنها أم برمتها ، وهذا العلم اليوم واقف لنا بالمرصاد ، ليفعل بعقائدها مثل ما فعل بعقائد الذين سبقونا إليه ، والأُمم الإسلامية اليوم محفوزة إليه بحكم التربية العصرية ، فوجب على القادرين منا على حمايته من الخطر العلمي أن يعملوا على شاكلتهم في هذه المسيل .

ربما يخيل لمن يطلع على شرطنا لإيراد السيرة النبوية على أصول الدستور العلمي ، أن جانب الإعجاز فيها سيكابد نقصا عظيما ، إن لم يُغفل إغفالاً تاماً ، وإغفال هذا الجانب منها يجعلها أمراً طبيعياً ، فتفقد النبوة صفتها المميزة ، وتصبح سيرة النبي كسيرة أحد عظماء الرجال ، وليكن من الممكن إثبات أنه أعظمهم ، فتكون النتيجة سلبية من الناحية الدينية .

نقول : لا ، فإننا إن سرنا على شرط العلم في إثبات الحوادث ، وعزّوها إلى عللها القريبة ، فإنه سيتألف من جملتها أمر جنل يقف العلم نفسه أمامه حائراً ، لا يستطيع تحليل صدوره عن فرد واحد ، وسيكون مضطراً بأن يعترف بأن محمداً ﷺ كان عبقرية من طراز خاص فاق به جميع العباقرة ، وهذا كسب عظيم للقائلين بنبوته ، لأن العبقرية في العلم لا تعنى ما تعنيه في عرف العامة . هي في العلم

ما يُلقَى في رُوع العبقري من علم أو عمل بدون جهد منه ، فيجىء فُذاً لا سابقة له ، يُتَّخَذُ مثلاً لغيره ولا يمكن تقليده . فالعبقرية بهذا المعنى العلمي تقرب معنى النبوة إلى العقل ، وتسوغها في العلم ، كما ستفصل ذلك تفصيلاً في الأعداد المقبلة .

إنَّ ما تم على يد محمد ﷺ أمور لا يسلم بها العقل ، لولا أنها حوادث لا يمكن نكرانها ، ولا الغصَّ من جلالها بوجه من الوجوه . فقد تم على يده :
 (١) توحيد الأمة العربية بعد أن كانت قبائل لا تجمعها جامعة ، ولا تعطفها على عناصرها عاطفة . (٢) قضاؤه في أمة برمتها على وثنية كانت متوارثة فيها منذ آمار طويلة . (٣) وإحلاله محلها ديناً ينافي ما كانت تدن به من كل وجه . (٤) وإحداثه إصلاحاً اجتماعياً قلب طبيعتها من جاهلية مظلمة ، وإباحة متحركة ، وغفلة متغلبة ، إلى إنسانية متألثة ، وفضيلة متوثبة ، ويقظة لا تدع فرصة إلى الأغراض الشريفة ، والمقاصد النبيلة إلا انتهزتها ، حتى وصلت إلى زعامة البشرية في سنين معدودة .
 (٥) وتأسيسه دستوراً حكيماً وحملها على اتباعه ، فتأدَّت إلى أكمل ما تتوق إليه جماعة من ترابط بين أجزائها ، وتكافل بين آحادها ، وتضافر بين جميع قواها المعنوية ، للوصول إلى غاية ما يمكن الوصول إليه من مكانة بين الأمم . (٦) ووضعه أساس أمة عالمية لا يكون فيها للفروق القومية واللغوية واللونية أثر ، تقوم على دين واحد هو الدين القسري الأول ، وعلى شريعة واحدة تبنى على أصول الحق الطبيعي والعدل المطلق ، وتنشد غرضاً واحداً هو الوصول إلى أقصى ما قدر للإنسان من كمال صوري ومعنوي معا .

هذه الأعمال كل واحد منها ترفع مُقيم صرحها إلى درجة ممتازة من العبقرية تتخلَّد له اسماً خالداً بين أسماء عظماء النوع البشري ، فما ظنك لو تمت كلها على يد رجل واحد ؟

وليس هذا كل ما في هذا الموضوع ، فإن العبقريات التي تم لها توحيد الأمم أو إبتاؤها بدين جديد أو بدستور إلخ ، إنما سلكت طريق السنة التدريجية للانتقالات الاجتماعية ، فأوجدت ما أوجدته من التجديد بواسطة أنقاض من الحالات السابقة ، لا تقوى على البقاء إلا زمناً محدوداً ، ريثما تنهياً الأسباب للأمة إلى الدخول في دور

انتقال جديد تمر به إلى حالة أرقى من التي كانت فيها ، ولكن الرسالة المحمدية لم تملك طريق تلك السنة الطبيعية ، ولم تستخدم أنقاض الحالات السابقة لبناء الحالات التي أوجدتها ، ولكنها جاءت بالمُثل العليا التي ليس وراءها مذهب ، وأقامت صروحها في بيئات طهرتها أولاً من جميع البقايا الأثرية ، فجاءت أبنيتها قائمة على أسس لا تتزعزع ، حافظة لجديتها وروائها ما بقى الدهر .

مثال ذلك : يحدثنا التاريخ عن عبقریات وحَّدت بين قبائل كثيرة فجعلتها أمة ، ولكنها لم تجعلها أمة مثالية خالصة من جميع عيوب الجماعات البشرية ، فإنك تصادف فيها طبقات ذوات امتيازات مختلفة ، وطوائف متوزعة مرافق الأمة على قاعدة استبدادية تحكيمية ، وتجد عامتها هملاً رِعاعاً لا حق لهم في الوجود إلا بقدر الخدم التي يؤدونها للخاصة ، فهم مستعدون ومحرومون من أكثر الحقوق التي يتمتع بها من فوقهم من مُتَحلى حق الوصاية عليهم ، فالأمة المؤلفة على هذه الشاكلة تسمى في العرف أمة ، ولكنها في حاجة إلى تطورات متعاقبة ليخلص فيها الاجتماع من آفاته المنذرة بالفتن الداخلية .

أين هذا من المجتمع الذي دعا إليه الإسلام خالصاً من جميع هذه العيوب ، وقائماً على أكمل الأصول العمرانية ، فهو مجتمع متجانس التركيب ليس فيه طوائف مختارة ، ولا طبقات ممتازة ، ولا حوائل تمنع أى عقل عال ، أو فكر ناضج ، أو نظر ثاقب من إظهار نشاطه ، وإبراز مكنوناته لخدمة الجماعة ، ووصوله بجهوده الخاصة إلى أرفع مكانة ؟ فكيف تولى مناصب الحكم ، وزعامة الدين ، ورياسة العلم ، وقيادة الجند ، وتدير الثروة العامة ، رجال من أجناس مختلفة ، وألوان متباينة ، وطبقات شتى ، لم يمنع أحداً منهم أصله أو جنسه أو لونه أو فقره عن الوصول إلى المرتبة التي عينتها له مواهبه . هذا هو المجتمع المثالي الذي دعا إليه محمد ﷺ وأوجده بالفعل .

وقل مثل ذلك في الدين الذي أتى به ، والدستور الذي أسسه ، والتمدن الذي أقامه ، والإصلاح الذي بنه ، والمجتمع الذي ألفه ، فقد جاء في كل هذه الشؤون بالمثل العليا نفسها ، لا بحالات ساذجة أو متوسطة تحتاج لأن ترقى وتتطور على مدى

الأزمان ، كما سنبين ذلك بالأدلة المخصوصة عند كلامنا عليها في هذه السيرة . فهذه الأعمال منفردة أو مجمعة لا يستطيع العلم أن يسلم بإمكان وجودها في عهد من العهود السابقة ، ولا بإمكان اجتماع عبقرياتها جميعا في رجل واحد ، فهذا العجز من العلم يكفينا في إثبات نبوة محمد ﷺ عند كلامنا عن حقيقة النبوة والوحى ، وأدلة ذلك من العلم نفسه ، إن شاء الله (*) .
